جولة استكشافية في هافانا:

ملكة البحر الكاريبي

> تحقيق وتصوير – حبيب سلوم
صور إضافية من شركة دريمزتايم

لاكتشاف هافانا القديمة والجديدة بشكل تام، قررنا التجول في المدينة على مرحلتين. فالصباح الباكر خصصناه لاستكشاف الجزء الجديد منها بالسيارة، أما فترة ما بعد الظهر فقد قررنا التجول في القسم القديم منها مشيا على الأقدام. كنت قد زرت هافانا مرات عديدة من قبل، ولكنني لم أكتشف المدينة حقا. وكان الأمر مختلفا هذه المرّة.

بدأنا استكشاف هافانا بالسيارة من حي ميرامار في المدينة الجديدة، الذي يعج بالسفارات الأجنبية والفنادق الراقية. وسرنا خلال الشارع الواسع المحاط بالأشجار ودور السينما والنوادي والمطاعم والمسارح، ومجموعة من الفيلات الحديثة التي تضج بالحياة والتي تتوسط الحدائق الساحرة والمكاتب في البنايات الشاهقة. وقادنا ذلك إلى الرامبا، وهو الشارع التجاري الرئيسي ومركز الثقافة والتسوّق والبيوت السكنية الجميلة.

وهنا، توقفنا عند كوبيلا، وهو أضخم دكان للمرطبات في كوبا، وشهير بلآيس كريم، وربما هو أكبر محل للآيس كريم في العالم. بعد الانخراط في الصف مع غيرنا من السيّاح والكوبيين، تمكنت أخيرا من تذوّق ما يدّعي الكوبيون أنه أفضل آيس كريم في العالم. وكان منتوجا جيدا، ولكن هل هو الأفضل في العالم؟ أشك في ذلك!

وفي أسفل الرامبا، انعطفنا إلى شارع مالیکون الواسع المتعرج والذي يمتد إلى 7كم بجانب شاطىء المحيط، وتحده من الجانب الآخر مبان متردية، ولكن بعضها، والذي يضم مجموعة رائعة من الأساليب المعمارية، قد جرى إصلاحها. ووقفنا عند قلعة كاستيلو دي لا بونتا للاطلاع على الجانب الآخر من الميناء حيث تقف قلعة كاستيلو دي لوس تريس ريیس ديل مورو، وهي واحدة من أعتى حصون الدفاع الإسبانية التي بنيت في العالم الجديد. والنار المتبادلة من هذين الحصنين أنقذت هافانا مرات عديدة من غارات القراصنة.

قلعة المورو في ميناء هافانا El Morro Fortress in Havana Bay

الاتحاد العربي في كوبا Union Arabe de Cuba in Havana

الكاتب أمام مطعم المدينة The writer in front of Al-Medina restaurant

مطعم المدينة Al-Medina Restaurant

برج المحطة Station Tower

متحف الثورة Museum of the Revolution

من هذا الشارع المحاذي للبحر، توجهنا نحو البلازا دي لا ريفوليوشن (ساحة الثورة) حيث يقف كاسترو كثيرا ليلقي خطاباته على الآلاف من مواطنيه. وهنا، تأملنا في المسلّة الضخمة المنحوتة تكريما لخوسيه مارتي، بطل الاستقلال الكوبي، ثم غادرناها متوجهين لزيارة مقبرة دي كولون القريبة المثيرة للإعجاب بقبورها الرخامية الرائعة. عدنا مرة أخرى إلى شارع الماليكون راجعين إلى هافانا القديمة، للإنغماس في معمارها وتاريخها.

لدراسة تاريخ الهندسة المعمارية في نصف الكرة الأرضية الغربي ليس هناك أفضل من التركيز على مبان في مثل جودة مباني هافانا القديمة، التي أنشأت في 1515 وهي تنضح بالتاريخ والعظمة. وهذا الجزء من المدينة، الذي هو واحد من أقدم المراكز الحضرية في نصف الكرة الغربي، قد أعيد إعماره بعناية كمعلمة شاهدة على تاريخ المدينة.

ولكونه واحدا من أوائل المراكز الحضرية التي أوجدها الفاتحون، فهو مزيج رائع من منازل المستعمرين الإسبان، و16 منها جرى تحويلها إلى فنادق صغيرة جذابة، وساحات ساحرة، و36 متحفا وأماكن أخرى ذات أهمية تاريخية. وفي هذه المباني، وبينها، تنتشر مجموعة متنوعة من صالات عرض الفنون، والفنادق، والمكتبات والمكاتب والمحلات التجارية والمقاهي والمطاعم التي تقدم الأطعمة التقليدية والعالمية.

لقد كان الفاتحون يطلقون على هافانا القديمة إسم (ملكة العالم الجديد)، وهي تعتبر من بقايا الحقبة الإستعمارية في كوبا، وهي جوهرة من المعمار الإسباني. وقد أعلنت اليونسكو هذه المنطقة من مواقع التراث العالمي، وتبلغ مساحتها أربعة كيلومترات مربعة من الشوارع الضيقة، والساحات المعزولة والقلاع والكنائس التي أنشأت منذ قرون وهي مثيرة للإعجاب، وتحدها من الجوانب القصور القديمة. ويجري، في عملية مستمرة، ترميم 907 من القصور الإستعمارية وأكثر من مائة من المعالم الأخرى. ويمكن للمسافرين أن يروا بسهولة أن هذا الجزء القديم من المدينة تجرى إعادته حاليا إلى ما كان عليه ذات يوم من روعة معمارية وشهرة.

وتوسعت هافانا اليوم بشكل كبير لتتجاوز قسمها التاريخي. وهي مدينة نفوسها 2,7 مليون نسمة، وأكبر مركز حضري في منطقة البحر الكاريبي، وتحتوي على ربع سكان كوبا الذين يزيد عددهم على أكثر من 11,5 مليون نسمة. ومع ذلك، فإن ما يتبادر إلى الذهن عندما يفكّر المرء في هافانا هو قلبها الإستعماري، وهو ينبض بالسيّاح والحياة. وينبغي للمرء التجوّل في هذا القسم الموقّر ليكتشف هافانا في كامل مجدها.

بدأنا جولتنا مشيا على الأقدام في ساحة سان فرانسيسكو دي آسيس، وقد أطلق عليها هذا الإسم لمجاورتها للكنيسة/الدير الذي يعود تاريخه إلى 1738. وهذا المبنى هو واحد من أهم المواقع التاريخية في هافانا. وهناك قناة حفرت باليد لمسافة 11كم، وقد جرى كشف بعضها من أجل إطلاع السيّاح عليها، وقد كانت ذات يوم تجلب الماء للكنيسة وترسو السفن على مسافة قريبة. ونقطة نهاية القناة هي في الساحة، عند نافورة (فوينته دي لوس ليون). وهذه النافورة التي زينت بأربعة أسود، هي بالضبط نسخة من نافورة الأسد في قصر الحمراء في غرناطة بإسبانيا.

وقبالة الكنيسة، والشهيرة الآن بقاعة الحفلات الكبيرة، يقف سوق الأوراق المالية السابق المثير للإعجاب. ويحد الساحة من الجانب مرسى السفن وعلى الجانب الآخر قصور من القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد جددت الآن بالكامل. ويعتبر بعض المسافرين هذه الساحة، وهي عادة مليئة بالسيّاح، أجمل ما في هافانا.

وبعد أن تركنا وراءنا سيدتين تحملان سلال الزهور، وهما تعرضان بيع قبلة على الخد أو صورة مع السيّاح بدولار واحد، آثرنا المشي في شارع (كايي تينينته ري) الضيّق الذي تحده المباني القديمة التي جرى تجديدها. "أوه! هذا يذكّرني بإسبانيا!" قالتها امرأة انجليزية وهي تتخطاني. ويبدو أنها لا تعرف أن هافانا كانت في وقت من الأوقات مقر

الأسطول الإسباني وواحدة من أهم الممتلكات الإسبانية في العالم الجديد.
بضع دقائق من المشي أوصلتنا إلى ساحة بلازا فيخا، المثيرة للإعجاب بقصورها التاريخية المطلة على الساحة من جوانبها الأربعة. وفيما عدا إحدى المباني، فإن البقية جميعها قد جرى تجديدها بأسلوب جميل، ولا شك أنها أكثر جاذبية حتى مما كانت عليه عندما بنيت في القرن الثامن عشر. والساحة فريدة من نوعها، وخلافا لغيرها في المدينة، لا يطل عليها صرح ديني أو مبنى حكومي مهم.
من ساحة بلازا فيخا، سرنا على طول هذا الشارع الضيق الذي تحده العديد من المنازل القديمة التي جرى تجديدها، بمعمارها الذين يجذب النظر. ويبدو لي أن هافانا القديمة تولد من جديد، مدينة من القرن السادس عشر تعيش في القرن الحادي والعشرين.
5 دقائق أخرى من المشي أوصلتنا إلى ساحة بلازا دي أرماس، وهي أقدم وأهم ساحات هافانا، وتحيط بها النباتات ومبطّنة من جميع الأطراف بمقاعد الرخام ومصابيح الغاز التي تضيئ الساحة. والساحة أيضا مليئة بباعة الكتب المستعملة. وتجتذب الساحة ليلا ونهارا مجموعة كبيرة من الناس، وكثير منهم تجذبهم المطاعم المحيطة بها.
تحد الساحة مبان هامة، فمقابل البالاسيو دى لوس كابيتانس جينيراليس الباروكي الطراز، والذي يستخدم الآن متحفا للمدينة يعرض الأثاث العتيق، تقف "التامبليت"، والتي تشبه معبدا، فوق البقعة التي أنشئت فيها مدينة هافانا في 1599. وتزدهر بجانبها شجرة سيبا، التي كان السكان الأصليون يعتبرونها مقدّسة. وجوارها قلعة الكاستيو دي لا ريل فويرزا والتي يتوج أبراجها لا غرالديا، رمز هافانا.
متعبين بعض الشيء، سرنا بضعة أقدام إلى مجمّع كاسا عربي (البيت العربي) لتناول الطعام في (مطعم المدينة). وبني هذا البيت على طراز بيوت الجنوب الإسباني التقليدية، ومستوحاة فيه البيوت الدمشقية، وهو مكان تتوقف عنده معظم برامج الجولات في المدينة. إنه مجمّع يضم متحفا للمهاجرين العرب في كوبا ومسجدا صغيرا، بالإضافة إلى مطعمي المدينة والفيزار، وكاسا العربي مكان معروف للأهالي، لا سيما المرشدين السيّاحيين. منذ بضع سنوات سابقة عندما كان يجري بناء المسجد، توقف مرشدنا السيّاحي عند كاسا العربي، والتفت إلينا قائلا "لا أعلم لماذا يريدون بناء مسجد في هذا البلد المليء بلحم الخنزير، والخمر والنساء شبه العاريات". في كوبا يمكن للناس أن يطلقوا النكت على بعضهم البعض الآخر. والعرب، مثلهم مثل غيرهم من المهاجرين الآخرين، يعتبرون واحدا من العناصر المؤسسة للبلد.
بعد استراحة منعشة، مشينا لعدة دقائق من ساحة بلازا دي أرماس إلى ساحة بلازا دي لا كاتيدرال (ساحة الكاتدرائية)، وهي نقطة توقّف مهمة للسياح. والساحة، وهي واحدة من أكثر وأفضل الساحات في هافانا من حيث العناية بها، معلم بارز وساحرة، وتدعى (روح هافانا). والكاتدرائية، واحدة من أجمل نماذج المعمار الباروكي في كل أمريكا اللاتينية، هي أهم موقع تاريخي فى هافانا بامتياز.
يحد الساحة أيضا متحف الفن الإستعماري والذي أقيم في قصر من العهد الإستعماري. وأمام الكاتدرائية يقف قصر كاسا دي لوس كونديس دي سان فرناندو دي بيزالفير التاريخي. والساحة دائما مليئة بالسيّاح، وكثير منهم يأتون للأكل في مطعم الباتيو المحاذي أو

ساحة وكاتدرائية سان فرانسيسكو
San Francisco Cathedral and Square

الكاتب في ساحة وكاتدرائية سان فرانسيسكو San Francisco Cathedral and Square

مطعم العجيب El Ajibe Restaurant

الكابتوليو The Capitolio

يتوقفون قليلا قبل التسوّق في سوق الحرف اليدوية المجاور.

جولتنا في سنترال بارك، على حافة أول توسّع كبير في هافانا القديمة. استرحنا في هذه الواحة الخضراء ثم توجهنا لاستكشاف معلمتين تسحران العين، وهما الثياترو دي هافانا (مسرح هافانا) والكابتيو، والأخير نسخة طبق الأصل للكابتول في العاصمة الأمريكية واشنطن، حيث أنه بني في العشرينات من القرن الماضي عندما كانت كوبا تحت التأثير التام للولايات المتحدة.

وعندما جلست للإستراحة في الحديقة فكّرت في جولتنا لنصف نهار في هافانا القديمة. لقد كانت تجربة سعيدة، حيث استكشفنا المباني التي مثّلت عظمة الأمس، لا سيما تلك التي أعيد إعمارها بشكل جميل.

ما أثار إعجابي هذه المرة في هافانا ليس فقط المباني التي أعيد ترميمها، وإنما ايضا الغياب الفعلي لباعة الرصيف، واللصوص غير المحترفين، والمتسولين الأطفال اللحوحين، والذين كانوا يملأون شوارع المدينة القديمة قبل بضع سنوات فقط. ويبدو الناس أفضل حالا وقامت السلطات بتطهير الشوارع من هؤلاء الذين كانوا يشكّلون سابقا مصادر الإزعاج. وعدت بالإنطباع بأن كوبا ذات ماض غني يستطيع الزوار الآن من أنحاء العالم المختلفة أن يستكشفوه وأن يتمتعوا به. ■

منظر بانورامي Panoramic View

ساحة الكابتوليو Capitolio Square

حقائق عن كوبا:

1 – أصبحت كوبا أكثر كلفة للسيّاح. ومن الأفضل أن تأخذوا برنامج رحلة معدّ وشامل والذي تقدمه معظم الفنادق.

2 – للتنقّل في هافانا، خذ سيارات الأجرة، فهي أفضل وسيلة. وأما استئجار السيارات التي تقودها بنفسك فهو باهظ الثمن.

3 – على الرغم من الظروف الاقتصادية، فإن كوبا كلها ما تزال آمنة، والسرقات نادرة، والمياه العادية صالحة للشرب، حتى في القرى. ولكن لكي يشعر السيّاح بالأمان، ينبغي لهم شرب المياه المعبأة في زجاجات، وهي موجودة في كل مكان.

4 – أفضل المشتريات في كوبا هي السيجار. حذار من سيجار السوق السوداء، فهو في كثير من الأحيان ليس أصليا. أفضل مكان لشراء الهدايا التذكارية الكوبية في هافانا هو أسواق الحرف اليدوية، مثل السوق القريب من ساحة الكاتدرائية.

5 – الكوبيون يقدّرون الهدايا، وخاصة الصابون، والقواميس الإنكليزية– الإسبانية وجميع أنواع الملابس، الجديدة والمستعملة.

6 – أفضل وقت للسفر إلى كوبا هو من كانون الأول/ديسمبر إلى نهاية نيسان/أبريل، وهو موسم الجفاف.

7 – لزيارة المعالم السيّاحية، هناك حافلات مخصصة تتوقف عند الطلب، وهي توجد في جميع المدن الكبرى والشواطئ.

الغذاء: الأكلات في معظم المطاعم الكوبية عادية جدا وغير مشهّية. وينبغي للزوار تجريب الطبق الكوبي الرئيسي وهو الأرز والفاصوليا السوداء – إنه لذيذ جدا إذا ما أضيفت له التوابل. بعض المطاعم الجيدة في هافانا التي ينبغي تجريبها، هي: مطعم فلوريديتا، الذي كان يرتاده همنغواي؛ مطعم الخيبي، وهو يخدم المجموعات الكبيرة ؛ مطعم ياسمين، الشهير بأكلاته العربية؛ وللمثال الجيد لوجبات الطعام، جرّبوا فندق ناسيونال، حيث يمكن لكم تناول أفضل الأطعمة في المدينة.